كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية
FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

1985
جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

مقياس: حلقات البحث

إعداد الأستاذ: لخضر بولطيف

مستوى: السنة الثانية ماستر – تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي

الموسم الجامعي: 2022/2021

المحاضرة (03):
الموضوعية في البحث التاريخي بين الحياد والتحيز
(القسم الثاني)

إثراء:

طرق الكثيرون من الكتاب المعاصرين مسألة "الموضوعية والذاتية"، مما يتقاطع ومشغل موضوع محاضرتنا، وقد انتقينا لكم -فيما يلي- نصا على سبيل المطالعة والمقابلة والإثراء (محمد بنحمادة: سؤال المعنى في الخطاب التاريخي، ص19-23.

المعنى بين الذاتية والموضوعية:

إن نقد مفهوم المحايثة يقذف بالمقاربة في عمق إشكال جديد، فما دام المعنى ليس عملية استعادة ميكانيكية لقيم مودعة في الأشياء، بشكل سابق من قبل قوة ما، بل إنه منبثق من رحم الثقافة، ومن خصوصية الأسنن التي تتحرك الممارسة في إطارها، فإنه من اللازم أن نميز داخل كل عملية تدليل بين ما ينتمي إلى الذاتية (الشروط الثقافية التي تميز هذه المجموعة عن تلك)، وبين ما ينتمي إلى الموضوعية (تناغم الوقائع الدالة مع شروطها المولدة).

ما نستطيع معرفته عن الدلالة هو شكل وليس مادة، إن الأمر يتعلق بتصور فلسفي بالغ الأهمية، فخارج الأشكال وبعيدا عن الأحجام يمتد عالم سديمي تغيب فيه الحدود بين الأجزاء، إنه المتصل، فعالم دون أشكال هو عالم تحتجب فيه ملكة الإدراك، فالإدراك لا يحركه التجانس بقدر ما تنشطه الاختراقات والتمفصلات واختلاف الأجزاء، ففي اللحظة التي خرق فيها الإنسان المتصل ليصبه في أوجه

متحققة، كان يكتب شهادة ميلاد لكائن إدراكي، ويعطي إشارة بدء رحلة رمزية، منطلقها "المجرد والعام" المستعصي عن كل ضبط أو تحديد، ومنتهاها وقائع لها ارتباط بالزمان والمكان.

إن ما نعرفه عن هذا العام، من خلال وجهه المتحقق، لا يقدم نفسه باعتباره حاملا لكل المضامين الممكنة والمحتملة التي قد يحيل عليها هذا العام في بعده القيمي المجرد، ولو قدر لهذا الانتقال أن يأخذ طابعا كليا، لأمكننا الحديث عن اختناق حتمي للتجربة الإنسانية، واختزال للنشاط الإنساني في نسخة واحدة، إنه موت مؤكد للرمزية.

فحياة الرمزية تستمد من طبيعة العلاقة الجزئية التي تربطها الوقائع مع نماذجها التي فاضت عنها، فمن جهة تحتفظ الواقعة الدالة بخصوصيتها من حيث كونها حصيلة إكراهات ثقافية تغطي تجربة إنسانية ما، ومن جهة أخرى تظل العلاقة بين الواقعة ونموذجها مراقبة، فهي تحتفظ منه بنواة معنوية تبقي الارتباط قائما، وإن تعددت المسارات التدليلية، وحالما انتفى هذا الارتباط طاردت لعنة العبث واللامعقول التجربة الإنسانية.

هكذا واستنادا إلى ما سبق، يمكن التمييز داخل كل عملية إنتاج للمعنى أو تلقيه بين نشاطين (قد يبدوان ظاهريا على الأقل متناقضين ويصعب التعايش بينهما)؛ إن الأول مرتبط بالاختيار، أي اختيار هذا المسير الدلالي أو ذاك، في حين يرتبط الثاني بالإلزام، وذلك حين يلزمك اختيارك بإنتاج معنى يتناغم مع أصله المولد من جهة، ومع خصوصيات الإكراهات الثقافية التي أنتجته من جهة ثانية، ونستطيع أن نمنح لهذه الثنائية اسما آخر، إن الأمر يتعلق بالذاتية والموضوعية.

ولا تبدو مقولتا الذاتية والموضوعية أقل التباسا أو أكثر وضوحا من العديد من المفاهيم التي نتداولها في مقارباتنا وخطاباتنا النقدية واليومية على حد سواء، والغريب حقا أننا لا نجد لدى مستعملي هذه المفاهيم أي رغبة في تحديدها أو تدقيقها، كما لو أن الالتباس والغموض جزء من لعبة نمارسها بلذة، دون الالتفات إلى طبيعتها أو تفاصيلها وقواعدها، أو كما لو أن الأمر يتعلق بنوع من التطبيع المسرف تقيمه الذات مع الجهاز المفهومي الذي تستعمله، وسيزداد الأمر تعقيدا عندما نربط الذاتية والموضوعية بحقل العلوم الإنسانية، حيث المسافة بين الذات والموضوع لا يمكن تبينها بالدقة الكافية، لا يعني هذا أن المسافة في العلوم البحتة تظل مراقبة بشكل دقيق، نستطيع معه الفصل بين المعرفة الذاتية والمعرفة الموضوعية، فأشد النظريات علمية لا يمكن أن تسلم من أثر الذاتية.

بالتأكيد ليست الذاتية شكلا من العلاقة المتحررة من القواعد والإكراهات، تربطها الذات مع موضوعها، فما يتم خارج الحدود وبعيدا عن الإكراهات والقواعد، هو سلوك شاذ وعبثي ولا معقول،

وأبسط ما يمكن وصفه به أنه انحراف، والانحراف يحصل حالما تخليت عن احترام الكل، تماما كما أن الموضوعية ليست ضربا من القواعد الصارمة التي تلزمنا بنتائج واحدة وثابتة ومتشابهة، إن الذاتية هي حضور للذات في الموضوع (وإن شئنا الدقة أكثر قلنا هي حضور آثار للذات في الموضوع)، هو حضور لا يعبر عن أنانية معرفية (وإن كنا لا نستبعد الوجود الواعي والشاذ لهذه الأنانية في أحيان كثيرة)، بل إنه حصيلة طبيعية لشكل العلاقة التي تربطها الذات مع موضوعها، وهي علاقة محكومة من جهة بوسائط رمزية لا يمكن تخطيها أو تجاوزها مطلقا، ومحكومة من جهة أخرى بزاوية النظر التي تحتلها الذات، فإذا كان موضوع ما يتجاوز إمكانية الذات في الإحاطة به من كل جوانبه، فلا جدوى من الحديث عن الموضوعية المطلقة في المقاربة أو التمثيل، فالذات لا تتحرك خارج أي شروط، بل إن أفعالها وردود أفعالها هي حصيلة لسلسلة من الإكراهات التي تحمي السلوك من التسيب والانحراف، فإذا كان السلوك (الواقعة الدالة) يوحي من الناحية المظهرية بالذاتية المطلقة (من حيث كونه نشاطا يحركه الأفراد)، فإنه في العمق يخفي صوتا لـ- النحن، فالذاتية ليست صوت فرد معزول، بل إنها أداة لنقل كل ما هو جماعي، إن "الأنا" مقولة ثقافية بامتياز.

واستنادا إلى ذلك نستطيع التمييز بين نوعين من الذاتية، ذاتية رمزية تعتبر حصيلة شروط ثقافية وإكراهات سياقية تميز هذه المجموعة عن تلك، وذاتية شاذة هي حصيلة إكراهات ودوافع سيكولوجية تعبر عن خصوصية فرد معزول، وبالمقابل فالموضوعية هي تعبير عن نوع من التناغم بين هذه الشروط والإكراهات من جهة، وبين النتائج من جهة أخرى (ونستطيع القول بتعبير المناطقة بين المقدمات والنتائج)، فالموضوعية هي الضبط النسبي للمسار بين الانطلاقة والوصول، أي بين ما يعود إلى الإكراهات السياقية، وبين المعرفة المتوصل إليها.

وبناء على ذلك فالحكم بذاتية "المعنى" لا يمكن أن يأتي إلا من خارج المسار، أي أنه نوع من الحكم يلحق بالمعنى من قبل زوايا نظر أخرى تشكلن العالم من خلال إكراهات مختلفة عن تلك التي تتبناها الذات، في حين أن الموضوعية لا يمكن أن تكون حكما يلحق بالنتائج (الوقائع الدالة) من خلال محافل غريبة، بل إنه حكم منبثق من صلب السيرورة نفسها، فليست الموضوعية بهذا المعنى سوى اسم آخر لذلك التناغم بين مقدماتنا (شروطنا الثقافية، والأسنن التي تتحرك في إطارها نشاطات الذات)، وما نفرزه من سلوكات دالة.

وعلى هذا الأساس فالمعنى يتمتع بالذاتية والموضوعية على حد سواء، فأما من جهة الذاتية فالمعنى هو إضافة تلحقها الثقافة بالأشياء، أي قيمة أو مجموعة من القيم الرمزية هي في العمق تعبير عن رؤية جماعة ما للعالم، من حيث كونها حصيلة لمجموع الإكراهات الثقافية التي تتحرك داخلها هذه الجماعة،

فالمعنى من هذه الحيثية معبر عن خصوصية ثقافية، تربت داخل شروط ما، فتشكلت لديها كوة تستطيع من خلالها منح العالم أبعادا ثقافية، وهي أبعاد ستختلف مقاساتها وأحجامها بالضرورة كلما غيرنا زاوية النظر أو نظرنا إلى الأشياء من خلال شروط وإكراهات أخرى، وكل اختزال لهذه الذاتية (الشروط الثقافية) ستكون نتيجته الطبيعية الشعور بنوع من التصلب يهدد التجربة الإنسانية، وشكلا من السيرورة التي تجمد الحركية، وتلغي الخصوصية والتفرد، وتحكم على التاريخ بالتوقف الأبدي، كما ستكون نتيجته أيضا اختزال "المعنى" في نسخة واحدة، وحينها ستصبح خلفياتنا الثقافية والحضارية والتاريخية والدينية شعارات نرفعها، وطقوسا نمارسها، دون أن تشكل النوافذ التي نطل من خلالها على العالم، فنقطعه وفق ما يتراءى لنا منها، أو المصافي التي تتسرب عبرها المعارف فتطبع بطابعها، وتحمل منها علامات دالة على خصوصية هذه التجربة أو تلك.

وأما من جهة الموضوعية فالمسافة بين هذه الشروط وبين الوقائع الدالة تظل مراقبة، فإذا كنا لا نستطيع (ولن نستطيع مطلقا) ضبط المسار الذي يسلكه المعنى ضبطا علميا دقيقا وصارما، فنحن من دون شك قادرون على كشف المعنى الهجين، وفضح التأويل المريض، والتعرف على الذاتية الشاذة أو المعزولة.

إن اختراق الذاتية لكل عملية تدليل، يجعل من المعنى كائنا إيديولوجيا بامتياز، على أننا لا نضمر من خلال منح الذاتية طابعا إيديولوجيا تمتيع الموضوعية بطابع "العلمية"، ثم إننا من خلال هذا كله لا نضع الإيديولوجيا في مقابلة العلم، فلا وجود لعلم ينتشي بتجرده التام من كل أثر إيديولوجي.